الشعر والغناء
بين القومية والاجتماع

زار مصر منذ سبع سنوات ، الكاتب العالمى "أندريه موروا André Mourois وهو إلى جانب كتابة القصة والترجمة ، وعلو شأنه فى الإلمام بحركة الأدب العالمية ، ودراستها فى شتى مناحيها وأطوارها ، صحفى خبير بشؤون الاجتماع وأسراره ، وقد وجه الكاتب الفرنسى الشهير ، نصيحة إلى أدباء مصر المحترفين ، نجتزئ منها هذه الكلمات :

" إن هذا البلد ملىء بالمواد الكتابية البكر ، وقد قرأت بعض مقطوعات شعرية لشاعر مصرى وأعجبت بها كثيرا ، وميدان الخلق الأدبى فى مصر واسع ، وكل ما يطلب منكم هو التصوير الصادق لهذه الحياة التى تعيشون ، ومن حسن الحظ أنها مازالت بكرا ، وفرص الاحسان والإجادة ليست بالبعيدة النائية " . . . وإذا كان " أندريه موروا " André Mourois قد اتجه بهذه الكلمات إلى أدباء مصر عامة فأنا أزفها إلى شعرائنا خاصة ما دام قد حظى واحد منهم بتقدير الرجل وإعجابه ، . . وكلمة الرجل هذه تخص إحدى الفكرتين اللتين أريد أن أجيل الحديث فيهما ، فهو يقطع بوجود مواد الكتابة ، ولا يجحد تفوقا لشاعر مصرى ، غير أنه يطلب صدق تصوير هذه الحياة وهذا ليس بالشىء العسير . والذى لا جدال فيه ، أن المجتمع المصرى إذا كان منذ سبع سنوات زاخرا ببواعث الكتابة والإنشاء ، فهو فى هذه الأيام أكثر وأشد ، فلم لايستوحى الشاعر من أحداثه ومآسيه ، قصائد ومقطوعات ؟ إذا كانت هذه الأحداث والمآسى تثير كامن الإحساس ، وتهيج هامد العاطفة ، وتدفع لنا أخير غذاء نفسى ، ينمى فينا روح القومية والاعتداد ، وقد أصبحنا أحرارا فى توجيه سياستنا ، والسير بأمتنا إلى أمثل الطرق وأقومها ؟

إن الأدب فى كل عصر من العصور كان اللسان الناطق بما يجيش فى صدر الأمم من الأمانى والآمال وما يكتنف حياتها من الآلام والأدواء ، كما كان سجلا لحوادثها وتطواراتها العامة . وكذلك يجب أن يكون من بين أدبائنا وشعرائنا من يؤدى هذه الوظيفة للشعب الذى يعيش فيه .

إن الشعراء فى هذا العصر عاكفون على أنفسهم ، مبتعدون عن ضجة الحياة وزحمة المجتمع فى عصر نحن أحوج ما نكون فيه إلى أن تكون أدواء المجتمع هى الشغل الشاغل لكل مفكر وكاتب وشاعر حتى يتعاون الجميع على تصويرها واستنهاض الهمم لعلاجها .

وإذا نظرنا إلى الشعر بهذه العين وجدناه مقصرا متخلفا فى حين أن الزجل قد قام بهذه المهمة خيرا منه .

أمامى وأنا أكتب هذه السطور مجموعة مطبوعة من أزجال الأستاذ "بيرم التونسى" ، وأستطيع أن أقول فى غير غلو ، إن زجل بيرم يزن بقيمته الفنية أضعاف ما احتوته دواوين بعض الشبان ، من بضاعة مزجاة . وأنقل للقارئ ما صادفنى اتفاقا وأنا أفتح هذه المجموعة الصغيرة ، قال بيرم تحت هاتين الكلمتين "العامل المصرى" :

ليه أمشى حافى وأنا منبت مراكيبكم
ليه فرشى عريان ونا منجد مراتبكم
ليه بيتى خربان ونا نجار دواليبكم

هى كده قسمتى ؟ ؟
أنه يحاسبكم ! !

ساكنين علالى العتب ونا اللى بانيها
فارشين مفارش قصب نايج حواشيها
قانيين سواقى ذهب ونا اللى أدور فيها

يا رب ما هوش حسد
لكن بعاتبكم

من الصباح للمسا ؟ والمطرقة فيدى
صابر على دى الأسا حتى نهار عيدى
ابن السبيل انكمى واسحب شرابيدى
تتعروا من مشيتى
وانجل أخاطبكم

* * *

ليه تهدمونى ونا اللى عزكم بانى
أنا اللى فوق جسمكم قطنى وكتانى
وعيلتى يوم دفنتى مالقيتش أكفانى
حتى الأسية
ونا راحل وسايبكم

أليست هذه حقيقة العامل المصرى التى تغادينا وتراوحنا ؟ وسمعها الزجل ولم يسمعها "فن الشعراء". . . ثم المرأة التى لم يقنع منها هؤلاء بعشرات القصائد المزورات على صادق الشعور ، وكريم الإحساس ، قال فيها بيرم هذا الزجل :

يا بنت بانى الهرم لمتى هلاهيلك
والبرقع اللى انخرم ويا خلاخيلك
يكفى لومان فى الحرم فى قيد خلاخيلك
ما شفت زيك سجين ساكت ومتاوى

غلبت أقول للرجال خلوا المره حرة
تخش زخره المجال تفهم وتتدرى
العاقلة بنت الحلال ما يضرهاش بره
لكن بتنصح فى مين روس جامده سنطاوى

راية ولاد العـــرب فى الأرض منكوســه
طول عمـــرها والسبب "إحسان" و"نفوسه"
والله اللى قال ماكدب نســـوانا موكوســـه
حتى اللى متعلمين بردون ياشـعراوى

جهل النسا بالعـلوم خلانـا أنتيـــكه
نفهم فى فن الحـــدوم رقعـــة وتشتيـكه
وفى البـلد عالعموم ما تـــلقى فابريـكه
غير فابريكات الطحين فليـحيي بدراوى

إن كانت أم الولد فى الزار بتتبخر
تجيب حمـار للبـــلد فى القطن يتسخر
قبـل الحمـير يخلد لو مل واتأخر
وسـيد الشغالين هو الأورياوى

يا بنت بانى القصور راجل ينـاديكى
بينـه وبينك ستور مدى أياديكى
وفكى عنه السيور الله يقويكى
وكونى ايده اليمين فى اللى عليـه ناوى

وفى زجل آخر بعنوان "ناظر الوقف" يقول :

يا ناظر الوقف من رب العباد ما تخاف
ولا المحـاكم بتملك منك الإنصاف
وان كنت اجازف وأقول إن البعيد خطاف
أطلع أنا المعتدى وانت من الأشراف

الوقف لك مملـكة والعدل عنها غاب
لا برلمان يخضعك فيهـا ولا نواب
عشر سنين وانت تبلع لم حسبت حساب
والمستحقين وراك ما يلتقوا عيش حاف

أول سنة رحت لك قلت أما أوفى الدين
تانى سنة قولت لى جارى صلاح العين
تالت سنة رحت انا حجيت وزرت الزين
رابع سنة رحت لك كنت انت فى الأرياف

خامس سنة خمست عالمحكمة خشيت
لحد قاضى الشريعة عالبساط وبكيت
طول لتاسع سنة حبل القضية ياريت
سلمت أمرى لربى ، خافى الألطاف

يا ناظر الوقف خليت العبارة خل
وانت اللى صبحت وقف المسلمين يخل
بكره الأيادى الجديبة بالفلوس تنبل
ويسرسبوها على أروام وبنسيونات

... لاأريد أن أزيد على هذا القدر، فقد جئت به على سبيل المثال لاعلى سبيل الحصر، لأرى بعض الشبان أن هذا الذى تسلموه تركة عن الأسلاف الكرام ، لم يعد صالحا أن يجروا عليه بحورهم وأوزانهم، ولكل جيل حاجات وأطماع. لا تقولوا إذا كان على الشعر أن يعرض أدواء المجتمع ويصف الدواء ، فأين القصة والمقالة ؟

وفى يقينى أن الحياة المصرية لم تفقد الجوانب الانسانية ، التى تستفز الشعور الصادق فى النفس الشاعرة الحساسة . . . "وللشعراء المتصوفين" بعد ذلك وجدانيتهم ، ومن المنافذ التى يستطيع هؤلاء أن يصلوا منها إلى أخلاد الناس وقلوبهم "الأغانى" فماذا يمنع لو بلور الشعر أمانى المجتمع ورغباته فى ألحانه وأنغامه بدل هذه الأغنيات المائعة المريضة التى تدور حول معان مبتذلة فى الحب الإنسانية منها براء ؟

أحمد عبد المجيد الغزالى